قال : فلم يكن بعد ذلك إلاّ َ أيام قلائل حتّ َى توفي C تعالى وأكله الدود . وكتب على كتابي جنان الجناس لمّ َا وقف عليه : .

لقد ضمّ َ أجناس الجناس فأطربا ... وأعجزَ من باراه فيها فأتعبا .

صلاحٌ لدين ا أ َبدى بدائعاً ... تروق بألفاظٍ أرقّ َ من الصّ َبا .

يراه بليغ جاء بالمدح سائلاً ... مجيزاً مجيباً قولَه لا مخيّ ِبا .

بإنشاده هذا وإنشائه لقد ... به فات من قد فاق فضلاً ومنصِبا .

فَقُسّ ُ إيادٍ عند ذا الفضل ناقلٌ ... ولفظ امرئ القيس البديع هُنا هَبا .

ومن شعره لمّ َا أُمسك الأمير سيف الدين كَراي المنصور نائب دمشق : .

أنا راضٍ بحالتي لا مزيدي ... وبأن أزال عبدَ الحميدِ .

إنّ َ في أمر كافل الملك بالشا ... م عظاتٍ للحازم المستفيدِ .

جاءه بالتقليد أَرْغُون بالأَم ... س وولّ َى وعاد بالتقييد .

ومنه : .

سَلَبَ المهجةَ منّ ِي ... بالجفونِ الفاتراتِ .

لم يزور البيت لم يَرْ ... مِ الحشا بالجَمَراتِ .

ومنه : .

وكم سرحةٍ لي في الرُبى زمنَ الصبا ... أشاهدُ مرأى حسنها متملّ ِيا .

ويُسكرِني عَرْفُ الشذا من نسيمها ... فأقضي هوًى من طيبه حتفَ أَنفيا .

وأسأل فيها مَبْسِم الروض قُبلةً ... فيُبرز من أكمامه ليَ أيديا .

فروضٌ زرتُه متنزّهاً ... فأبدى لعيني حُسن مرأى بلا رِيا .

غدا الغُصن فيه راقصاً ونسيمُهُ ... يكرّ ُ على من زاره متعدّيا .

ترجّ َلَتِ الأَشجار والماء خَرّ َ إذْ ... نسيمُ الصّ َبا أضحى به متمشّ ِيا .

تُغَنّ ِي لديه الوُرْق والغصنُ راقصٌ ... فيعرقُ وجه الأَرض من كَثرة الحيا .

ومنه : .

فَعُدّ َ نفسكَ من أهل القبور بها ... فعن قليل إليها سوف تنقلُ .

واذكر مصارع قومٍ قد قضوا ومضوا ... كأَنّ َهم لم يكونوا بعدما رحلوا .

يا ليتَ شعريَ ما قالوا وقيل لهم ... وما الذي قد أجابوا عندما سُئِلوا .

ومن نثره C تعالى يصف قلعة ذات أودية ومحاجر : لا تراها العيون لبعد مرماها إلاّ َ

شَزْراً ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاّ َ نَزْراً . ولا يظنّ ناظرها إلاّ َ أنّ َها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ولها من الفرات خندق يحفّ ُها كالبحر إلاّ َ أن هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملح أُجاج . ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرّ الهواجر وقد توعّ َرت مسالكه فلا يُداس فيه إلاّ َ على المحاجر . وتفاوت ما بين مرآه العليّ وقراره العميق ويقتحم راكبه الهول في هبوطه فكأ َنّ َما خرّ َ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

ومنه في صدر كتاب : وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً ولا أعدم الملك منه ناظراً ولا عينا . ولا زال على الأ َعداء يرسل من مهابته رقيبين أذناً وعينا . وأغنى بمكارمه من أن نشيم من السماء خالاً وعينا . أو نَرِدَ من الأرض منهلاً وعينا . وأطلع طلعة لوائه في الخافقَيْن حتّ َى تخال لشمس عينا . وسيّ َر ركائب ذكره في الآفاق لا تشتكي أ َيْناً ولا عينا . وأقام ميزان القسط بين الرعايا لا يجد فيه عيناً ولا عينا . واستبعد لخدمته كلّ َ أصيَدَ من الملوك لكل جحفل قلباً ولكن محفِل عينا . وأهلك كلّ َ عدوّ له وحاسد تارة فجأةً وتارة عينا . وأنطق لسانَ كرمه للأولياء بنون وعين وميم إذْ كتب سواه ميماً ونوناً وعينا . ومتّ َعَهُ بما خصّ َه من استجلاء عرائس الحور العِين بمجاهدته إِذا شغل سواه عَيْناءُ من أسماء وعينا . وسطّ َر آثار مآثره محكمةً على صفحات الأيام إذْ لم يُبْقِ لمن سلف من الملوك أثراً ولا عينا .

أبو حيّ َات التوحيدي الشافعي